البنت والنورس

مجموعة قصصية

خليل فاضل

الرسوم الداخلية : الفنـــان تـــاد
لوحـة الـغـلاف : ســـامح حـســـان
تصميم الـغـلاف والإخـــراج :
مــحمـد الـصــبـاغ

الطـبعة الأولى
الـقــاهـــــرة
أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٩٢

البنـــت والنـــورس

حركـــة

الفـراشـات



ها هي الفراشات تدور محومةً حول القلب ، حول المركز،حول الصدر ، تدور داخله متمحورة حول الضوء الداخلي،ترتعش ، تموج كما موج البحيرات الناعمة الصافية،وتبتهج كما الأيام الحبلى بالأحلام . تقفز نحو المجهول القادم بقدمٍ وساقٍ جريئتين ، هكذا كان يفرح بأحاسيس خاصمته منذ زمن متعجبًا لها ، يحاول التركيز على الجريدة بين يديه فيفشل وينهض واقفًا من على كرسيه محاولاً التعرف على ذلك الشعور الحلو الخاص الذي شمله كله ، وتركز في صدره.

قام واقفًا من على كرسيه البسيط في حديقته المتواضعة، استفاق من أحلامه متطلعًا إلى باب البيت فوجدها تخطو ناحيته باسقة متمكنة خجلى تحاول الإمساك بالفراشات المحومة داخل صدره ، كاد يخرج عن طوره ليضمها إليه فسألها:

ــ عجيبٌ هذا الشعور المرتبط بالمراهقة.

ضحكت ضحكتها الخاصة جداً وقالت :

ــ ما من شعور إنساني خاص بفترة عمر ، إن الإنسان هو الإنسان ، وأنت لاتكبر.

سقطت الجريدة من يده التي لم يدرك أنها كانت تحملها ، ابتسم وقال :

ــ لا لقد كبرت كثيراً ، وانتشرت كل العلامات في كل الجهات مشيرةً إلى تقدمي في السن.

ابتسمت مرة أخرى فابتسم وجهها كله، وكيانها كله

وكادت مرة ثانية أن تمسك بالفراشات المحومة في صدره، لكنه خاف وابتعد وتأمل العشب الأخضر والسماء الزرقاء والنسيم الهادئ ، تأمل موقع قدميه ، حركة صدره ، تنبه إلى أنها أمامه وإلى أنه لم يدعها بعد إلى الجلوس.

جلست قبالته كالفجر المطل ، لمعت عيناها بوهج غريب ، ازدانت فى هيئة متألقة، كادت تنطق بالهوى ؛ فسارع يخبرها بأن توهج عينيها غريب وخاص . سألته وهى تجلس معتدلة أكثر :

ـ ما الغريب والخاص فيه.

أجاب قائلاً :

ـ أنه عميق وصاف يستحوذ على من يستقبل شعاعاته.

ـ أنت رجل شاعري تتحدث دوما عن الشعاعات والفراشات !!

ضحك متأملاً وجهها المتورد الضاحك وقال :

ــ أنت

قاطعته بسرعة متسائلة:

ــ أنا.. نعم . لماذا أنا..؟ وأنت الذي قطعت المسافات ، درت حول الأرض وكدت تمسك بها من قطبيها ، وطرت في الهواء وتحدثت مع الحور العين وبنات العالم ونساء القرى والمدن !!

رفع رأسه التي كانت قد أطرقت للحظة استماع زادت فيها حركة الفراشات في مركز كيانه . تأملها وقال لها:

ــ إنه الصدق ، تلك الشفافية النادرة ، تخرج من الأرض مشبوبة ، لايغلفها شيء .

كان القلق يحاول أن يواري الألق في عينيها ، تململت فى حركتها وهى تسمعه ، سألته:

ــ ماذا تريد مني ؟!

ابتسم وهو يدقق فى معاكسة الريح للعشب القصير القامة وهو يحاول أن يثني قامته فلا يقدر ، قال :

– لاشيء..

أنت هنا وأنت هناك ، على وجه هذه البسيطة ، على سطح هذه الأرض تتنفسين ملء السماء ، وتمشين داخل دروب هذه الدنيا..

قامت تخطو خطوات بطيئة محسوبة ، تنهدت ، تأملت ما حولها ، احتضنت حقيبتها في خوف وفي سحر وفي توتر، تقدمت إليه كالعصفور الذي ينتفض من فرط المحبة والخشية من المجازفة ، حاولت أن تمسك بتلك الفراشات المحومة في صدره ؛ فوجدت ناراً تتأجج فزاد التوهج فى عينيها ، وزادت الحمرة في خديها ، وصارت تدور حوله كزنبقة تعصف بها النسائم ، يلثمها النحل ، وجلس هو على العشب

الأخضــر القصـــير القـــامة كالطـفل الضـائع يركـــز على حواســـه الخمـس ، ويقبـض بكلتا يديه على الحلم ، يعاركـه محـاولاً نفخ قوة السـحر فيه كي يصـير حقيقـة ، لكنه أفاق من تصــوراته على صـــرير الباب .

العينان

والكيان

باسقةٌ كالحلم ، طالعةٌ كالفجر، مرتبكةٌ كيمامةٍ متيمة بالعشق، خطت خطوات بطيئة تستكشف فيها المكان ، لفّت ثم عادت ثم لفت ، أومأت ، رفعت هامتها ، دارت حول نفسها تفتش في النمنمات الصغيرة والصور المعلقة والزخرفات المنبسطة عن شيء. دخل فجأة من الباب الموارب ، أحدث ضجة بكيانه الذي بسط ظله على الضوء الخافت النائم على الجدران ، بتميز وتحديد وبتفرقة بين الجدران الثلاثة حيث كان الرابع مفتوحًا على البحر ، والثالث مقطوعا من النصف

بمدخل أشبه بأماكن العبادة.

ابتسمت فابتسمت عيناها واهتزت خصلات شعرها الذي كانت قد لملمته بطريقة محددة تمنع انتشاره بأي شكل ، لكن حركته الداخلية كانت قد فضحته فضج بالحركة وازدان بوشوشة الحلق الذي ارتدته في أذنيها متربعًا كقطعةٍ ضخمةٍ تأكل من نحرها الممتد ، وتكسر مساحة الجمال المنتشرة إلى خديها اللذين لم يمتنعا عن المشاركة فى مهرجان الضحك الشمولي الذى بدأته عيناها. افتر ثغرها عن سنتين مميزتين تضحكان دونما ضحك وتنشران بياضًا متألقًا ينتشر في كل الجهات .

خبأت وجهها بيديها ، أو بالأحرى خبأت عينيها بأناملها المنسابة كسعف النخل المولود ، يكتشف لنفسه الضوء والضياء ، ظل بكيانهِ القوي يتمكن من المكان والزمان متأملاً تلك العصفورة الخجلى الملونة الريشات الضاحكة خجلاً وهي

تعـاود إخفـاء عينيهـا ؛ فلمـح مـن بين أناملهـا بحـرين عميقين يعصيان على الاكتشاف ، فيهما تواريخ وأزمنة وعوالم ووجود ، مـدن وناس وعواطف ودنيا . ضحكـت وتخلت عن عملية الإخفاء الطفلية وقالت :

ـ لماذا تنظر فى عيني ..؟؟

ابتسـم فى هدوء ثقيل كسته أشعة المصباح الضـوئي الصغير القابع أمامه وقال:

ـ ولمَ لا.. إني أنظر فيهمـا لا إليهمـا ، إنهمـا يدعـواني للتفتيـش في كـوامنهما عـن أسرار العشـق ، إنهمـا غـريبتان أو علَّهمـا كمـا قـال بدر السياب غـابتا نخيـلٍ ساعةَ السَحَرْ ، أو شُرفتانِ راح ينأى عنهما القمر.

جلسـت إلى جواره تتأمله وتعلق على اختيـاراته المختلفة ، التفت إليها قائلًا :

ـ ربمـا ظن البعض أني لا أليق بكِ ، أو أنكِ

كثيرة جدًا عَلَيّ .

لم تعلق ، لكن تصفحته بعينيها ، قامت من جلستها فى تؤدة قائلة:

ـ إن كيانك يتحدث بكل قوة حتى أنني لم أسمع ما قلت..

هزَّ رأسه ضاحكًا مجيبًا :

ـ نعم هذا ما يتخيله إيمرسون.

تمشت إلى خارج المكان باسقةٌ كالحلم ، طالعةٌ كالفجر ، مرتبكةٌ كيمامةٍ متيمةٍ بالعشق ، وضعت على عينيها نظارة شمس داكنة تحميها من ضوء الشمس الساخن ومن العيون المنتشرة، أو علَّها كانت تحتفظ بما حوته تلك النظرة المتبادلة ، وما قصَّته عليها عيناه ، غير أنها تحولت فجأة وخلعت نظارتها محلقة في وجهه متأملةً عينيه، متيحةً للنهار أن يشهد لقاء الموج الروحي المتلاطم بينهما. صفقت حمامةٌ بجناحيها خلف

رأسيهما ، توجهت فى رفقته إلى الباب الكبير ، تأملت الأرض المنبسطة والحديد الأسود ، خَطَت خارج البـاب ، وما أن لامسـت قـدماها الأرض حتى تهـدّج صـوتها لـدى سماع صوته العميق يقول :

ــ خللي بالك من نفسك !!

اهتزت الحلي فـوق أذنيها ، ورغم أن شعـرها كان مضمومًا في مهارة ، إلا أن اختلاجاتِهِ دعتها إلى لمسه للتأكد من ثباتِه. ثبّتَـت النظارة الداكنة على عينيها ، خفق قلبهـا بشدة ، وكان هنـاك مرتميا على كرسيه الكبير مستغربًا مـن كيانه القوي وهو يهتز اهتزاز أوراق اليـاسمين الضعيفـة فى مـواجهة النسـائم الرقيقة.

محـــاولات

الـجـنـيــن



حاولت أن تكون جنينًا .

ضمّت ذراعاها في وضعٍ قائم أمام صدرها ، حتى تلامس مرفقاها ، وهي مازالت في حضنه.

ضمَتها ذراعاه القويتان حتى كادت أن تعصراها ؛ فأطرقت برأسها ولم تستطع مواجهة عينيه حينما اقتربتا من عينيها ، ضمَها إليه أكثر ؛ فتكَوَّرت على نفسها أكثر ، وكانت ، نعم كانت تحاول أن تكون جنينًا يتخلق بين يديه.

كان يحاول الإمساك بكل ذراتها ، وأن يتنفسها في عمق ،

وكانت تستسلم ، غير مصدقة لهذا التناغم القوي الذي اختلطت فيه المشاعر تتلاطم كالموج العنيف ، وتغلي كالبركان الثائر ، وضعت يدها اليمنى على صدره وسألته:

ـ هل هنا تكمن الفراشات ؟

ضحك قائلاً :

ـ نعم ، هل تسمعينها؟

قالت :

ـ أُحسُّها تخبط في كياني وترفرف بأجنحتها في جوانب صدري.

جلس ؛ فجلست إلى جواره تتأمله وكادت تنطق ؛ فقال :

ـ كأني أعرفك منذ وُلِدْتِ .

ابتسمت،ثم ضحكت وقالت :

ـ نعم ، المشـــكلة أنك تقرأني كتابًا مفتوحًا .

أراح رأســه على صــدرها ، مســحت على شــعراته ، ســمع دقات قلبها ، تأملها ، ثم نام . كان كالرضــيع ، وكانت مازالت ، تحاول أن تكون جنينًا.

الحنجرة

العازفة

في البداية ، نعم في البداية ، كان يلجأ إلى الليل ، يجد في هدأته ملاذًا من شدة الألم الذي يعصر أحشاءه ويطرق جمجمته بمطرقةٍ ضخمة.

والآن يهرب إلى الليل هروبًا من الدقائق التي تتجمع لتصبح ساعات ، تأخذ في تعدادها النهار والناس.

ما أن أفاق بعد هدأة الليل وفتح عينيه المجهدتين على واقعه المعاش ، حتى أدّى طقوسه اليومية ، ومضى يجلس على مكتبه المزدحم متصفحًا أوراقه الكثيرة ، يحمل الهمّ على

جبهته ، ويقلبه بين يديه . صرخ فجأة :

ـ أنا الصرخةُ فهل من حنجرةٍ تعزفني ؟؟

كان يعرف أن كلمات فاضل العزاوي قد تمكنت منه واشتعلت في فوديه ، أشعلت كيانه بأجيج نارٍ مستعرة لاحدَّ لها ولاتصور . طرق الباب طارق فصاح :

ـ نعم من بالباب !؟

صاحت في صوتها العميق المستدير قائلةً :

ـ أنا الحنجرةُ جئتُ لأعزفك .

ضحك فى سخرية سامحًا لها بالدخول ، ولما فتحت جزءاً من الباب طالعت علامات الإجهاد على وجهه ، حدقت في كيانه الفصيح ؛ فطالعها من زاوية الباب باديةً كالحلم المشوق تتأنى في الدخول ، ولما فتحت الباب على مصراعيه ، وخطت إلى الداخل خطواتٍ محسوبة ، أشاعت فى غرفته نوعًا من الجلبة المحببة ، كاد ينطق فأسَرَته قائلةً بسرعة :

ـ أنا لاأحس بخطواتي وهي تمشي على الأرض ، كأني مسافرةٌ من نجم إلى نجمك ، وكأني أخطو على النغم وأطأ الإيقاع.

ضحك شبه ساخرٍ من كلماتها التي فاجأته ، دعاها إلى الجلوس ، تأملها في حذر وهي تجلس مشعة ، وهي تتطلع متأملة ، سألها :

ـ كيف ستعزفينني ؟؟

قامت لتمسح على شعره ولتمرّ بيدها الملائكية على جبهته ، ولتهمس في أذنيه:

ـ هكذا..

استدار ليعطيها ظهره قائلاً :

ـ تُرى هل سمعت الأغنية ؟!

ردت بسرعة :

ـ أي أغنية ؟!

قال :

"أصل عيون المليوة ملوين ياناس قوي

ورموشه ياناس كميلة وبتجرح بالقوي"

ضحكت فى صوت عال . ضحكة مجلجلة اهتزت لها الجدران ، واهتز لها جسدها فلم تتمالك ؛ فوقعت على ظهرها على كرسيها وأغرورقت عيناها بدمعِ الضحك ؛ ففاضت عيناه بدمعٍ مُرّ وقال على حين غرة :

ــ هلا أوقفت هذا الشلال المتكون من بحر دموعي .

مسحت عيناها بمنديلٍ ورقي ، وحرصت على أن تزيل آثار الفيض الذي أخذ في خضمه بعض الماكياج . ردت عليه فى هدوء ووجهها مازال ينطق بالثقة والقدرة على الاقتحام.

ــ لا.. بل دع هذا الشلال يفيض ، ودعني أبحر فيه بقاربي الصغير المتمكن.

جلس على كرسي صغير قبالتها يتأملها ، كان الإجهاد قد نال منه الكثير فتغضن وجهه فجأة ، وضع يده على جبهته ثم سألها :

ــ ما أخبار تلك الفراشات الحلوة التي ترفرف في صدرك ؟؟

قالت في ثقةٍ دافئة :

ــ لقد توَّحشت وصارت لها أنياب وأسنان ، إنها مسجونة في قفصي الصدري ، تخبط في ضلوعي وتؤلمني ، إنها فراشات طماعة طموحة لاتكتفي بالرفرفة ، إنها تتوحش بك ولك ، أخرِجها من سجنها وأطلقها في السماء ، حُطَّ بها بيديك القويتين على بطن الزهور المنتظرة دوما لمساتك .

أنهضها من جلستها ليحتضنها في عنف ، وليحتويها بين يديه في قوة ، وليذيبها تمامًا في إجهاده وكلماته ، في عنفوانه

وصخبـه ، في ليله وآلامـه، نظـر في عينيهـا قـائلاً :

ـ تُرى هـل يرى النـاس مـا أرى ؟

همست في صوتٍ خفيض :

ـ كثيرون مـن يرون ، لكنك تُحـس وترى .

ربت على ظهرها ، ثم مسح على شعرها ، وقبّلها في جبينها ووجنتيهـا وثغـرها ونحـرها ، تبـاعد عنهـا قليلاً ثم قـال :

" ياحلوة ياشايلة البلاص زي ماحبك حبيني "

بدأ يرقص في إيقاعٍ خفيف مثل المغني الفـولكلوري متقال قناوي ؛ فضحكت مرةً أخرى ضحكتها العاليـة حتى أغروورقت عيناها بالدمع وقالت :

ـ هل تعرف أن هذه تعرف إن الرقصة ليست مثل متقال ، إنها مثل زوربا اليوناني تمام.

امسكـت بيـده ومدَّت ذراعهـا بطول ذراعه ، دبَّت بقـدميها على الأرض ؛ فأوقفها فجأة وقال :

ـ من أنت ؟

قالت :

ـ أنا الحنجـــرةُ جئــت أعــزف صـــرختك .

صـرخ من الفرحة وعـزفته في إيقاع محسـوب ومحسوس ، قـام عائداً إلى مكتبه بين ركام أوراقه ، خرجت منسحبـةً من البـــاب المـوارب ، ولمـا لم يعـد قـادرًا على سمـــاع خطـوات أقـدامها. علم تمامًا أنه يشتـاق إليها في اللحظـة التي تمضي عنه فيهـا ، وأنه يشتـاق أيضًـا لهدأة الليل تهـدهده وتلم أفـراحه وأحزانه ، تضـم أشواقـه وتأخذ عنفوانه بين ثنـــاياها ، لكـن المفـاجأة كـانت حينما جاءت في الليـل تطرق باب الحلم وباب الحـــزن والأبواب الأخرى التي كـــانت مـــازالت مـــوصدة.

الهمس المسترسل



همست له همسًا عذبًا مسترسلًا :

ـ أتمنّى .

هَمْهَمَ همهمةً دافئةً حلوة :

ـ ماذا ياحلوة الحلوين ؟؟

قالت :

ـ أن تكـون لك أذرع وأيادي لتضمني كُلّي ، من رأسي حتى قدمي .

طأطأ راسه وتأنّى في الرد ثم قال :

ـ كان شكلي سيصير وحشًا .

ضحكت ، وخرجت مع الضحكة من صدرها نسائم العشق والتأمل ، نظرت إلى الأرض ، هزّت رأسها وهي ترفعه إليه تتأمله ثم قالت :

ـ مالي أنا والشكل ، لم أقصد عدد الأذرع ولا كَمّ الأيدي ، يا أخي إني قصدتُ الضَمّ واللَّمّ ، الحُضن والاحتواء .

ابتسم فظهرت بعض أسنانه ، مسح على شعره ثم قال :

ـ أعرف ، لكني تخيلتني بستةِ أذرع تخرج من جسدي .

قالت والدهشة تملأ مجري عينيها :

ـ فنانٌ انت في إفساد اللحظة .

ابتسم مرةً أُخرى ، لكن لم تظهر أي من أسنانه ، تَمَشّى في بطء مختالاً أمامها ثم سألها :

ـ من أين طلعتِ أيتها الحورية ؟؟

ضحكت مرةً أُخرى ضحكتها المعهودة ، ردّت في حزمٍ وفي قوة :

ـ لقد خرجت من القمقم ، بعد أن أزلتَ عنه التراب ، لمّعتـه وفتحته ؛ فخرجتُ إليك ، وقلـت لك "شُبيك لُبيـــك أنا بين إيديك" .صمتـــت هنيهـة ثم صــاحت فجـأة :

ـ ماذا ستفعل بي أيها الفارس ؟؟

حكَّ فروة رأسه مرتين ، خطا إلى الأمام خطوتين ، نظر في عينيها حتى قدميها ، أمسك برأسها بين يديه وهَزّهُ هزًّا حميمًا ثم قال :

ـ ياتاج رأسي سأُزينك بما أعـرف ، وسأدخل بكِ عـوالم لم تطرقيها ، وسـأُريكِ دنيا لم تعـرفيها ، وستكونين الملكةَ والمُلك ، وستكونين ....

وضعــت ســـبابتها النحيلـــة على شـــفتيه لتمنعــه مـــن

مــواصلة الكلام ثم همســت همسًـا عـذبًا مسترسلًا :

ــ أنا لك رغم تباين المكان .

صاح وكأنهُ أسدٌ يقوم من مرقده بعد أن استشعر الخطر ، ضَمَّها إليه في عنفوان ، مال برأسه على أُذنها وقال في صوتٍ خفيض :

ــ لماذا تنبشين في ماضيّ ؟

ضحكت مرةً أُخرى ضحكتها المعهودة ، مـالت برأسها على أذنه قائلة :

ــ حتى أرسم كل تضاريسك .
أَخُطُّ عالمك الذي لم أكن فيه .
أُحبك بأثر رجعي !!

تململ من اتقاد ذهنها ، ضجر من محاولة كشف تضاريسه ، رسم ابتسامة على شفتيه ؛ فوضعت سبابتها عليهمـا مرةً أُخرى وقالت :

ـ لا تفسد اللحظة ، أنت هو أنت ،

وأنا أنا.. هنا .. الآن .

مال برأسه على أذنها في نفس اللحظة التي مالت برأسها على أذنه ؛ فتوقفا في منتصف الأثير ، لم ينبسا ببنت شفة ، فقط اغرورقت عيونهما بالدمع فرحًا وتحسبًا للحظةِ الآتية .

المشهد
الملكي

[١]

خطا بجسده ذي الحضور الخاص من بوابة الفندق العريضة، وما أن تقدم قليلاً حتى انفتحت الأبواب الزجاجية منسحبةً إلى أماكنها الخفية ، تخطاها إلى البهو ذي اللون القرنفلي الفاتح الذي زادته بهجة مصابيح الإضاءة المختفية والمعلنة. دخل إلى المصعد ، يرتفع معه إلى الدور العاشر ، وما أن تقدم إلى البهو المُضاء على استحياء ، حتى وجدها تتأبط ذراعه مرتديةً بلوزةً بيضاء مشغولة بدقة من نفس اللون ،

وتنـورةً طويلة تُزيد طـولها طولاً . كـانت أقصــر منـه قليلاً ، وكــانت هـامتهـا مـرفوعة ، مبتسمــةً في ثقـةٍ عـالية.

خطـا بجسده ذي الحضـور الخاص إلى داخل الجمـع الجالس المثرثر المـوّزَّع إلى ثلاث مجموعات ، خطـت بجسدها الممشوق خلفـه بقليـل ، محتضنـةً ذراعـه ومتـأملةً النـاس مـن خلالـه.

[٢]

توقف الجمع عن الحركة والشرب والكلام.

تأملهمــا النـاس ، حملقــوا فيهمـا ، ثم عــاودوا الثرثرة المنـدهشة المتسـائلة عـن الموعد والتاريخ الــذي تزوجا فيـه .

[٣]

جلســـا في صـــدر البهــو ، متربعين على عــــرش يتـــوهج بحضـورهما الخاص ، أنهيا عصير البرتقال ، وتقـدّما إلى جمع النــــاس يشـــاركونهم دهشتهـــم وحيرتهـــم، قـــال أحدهـــم:

ـ تليـــق به جدًا ، ويليـــق بهـــا تمـــامًا.

ضحكت إحداهن وقالت :

ـ إنهما أشبه ببطلي المشهد الملكي في فيلم "كـاميلوت".

التفتـــا إلى مصـادر الكلام فتـــوقف ، استمـــرّا في مـداعبة الآخرين ومشـاركتهم ، حتى صمتـوا وكفُّـوا عـــن الدهشـــة.

النحلة

تطير

في المدينة



بكى في حرقة.

مسحت دمعه وكفكفته بيديها النحيلتين ثم شرعت تنتحب بشدة، فربت على ظهرها ، واسترسل معها في نشيجٍ لاينقطع.

تطلعت إلى وجهه الغارق في الدمع من خلال عينيها الطافحة به ، سألته في حنانٍ شامل :

ــ مَالَــك ؟

هَمْهَم في حزنٍ مكتوم :

ــ أمضـــغ الصـــبر وألوكـــه في فمـــي

وصـــدري ليل نهـــار.

بلعـت ريقها مع بعض دمـوعها ثم قامت واقفـة ؛ فتـوقف الحلم في عينيهـا وكأنه غصـة في حلقها ، تمشـت إلى الأمـام في هـدوءٍ محسوب ، كان يطـالعها من ظهرها وكـأنها راقصة باليه تتـأنى في رقصتهـا ، التفتـت إلى الخلـف فـوجدته جالسًـا على كرسيه ،

واضعًا كلتا يديه على رأسه ، يضغطها وكأنه يتمنى الإمساك بالأفكـار والأحلام ، كـأنه يتمنّى حلَّ المعضلات ، لكنـه كان عـاجزًا محـاصرًا تنفس في عمـق ، ثم قـام مـن مقعـده واقفًا متقـدمًا إليهـا ، ممسكًا بيـدها يقودها إلى الشـرفةِ المطلـةِ على البحـر . استنشقا نسيمه المالح . نظرت إليه فتـأملها وتساءل :

ــ هـل تَرَيْن المـوج وهـو يخبـط الصخـر ؟

قالت :

ــ أراه وهو يتراقص .

ســـألهـــا :

ــ هــل تشـاهدين الــريح وهــي تعــاكس البحــر ؟

ردّت :

ــ أرى البحـــر وهـو يغـالب مـن يمخـــرون عبـــابه ويشقون ثيابه ويرمونه بكل شيء .

جلس على حافة الكورنيش ، استدار ليواجه البحـر وظلّت مكانها تواجه المدينة . سألها متعجبًا :

ــ لماذا تعطيني أنا والبحر ظهرك ؟

ضحكـت ضحكةً طفليةً خالصة ، مسحت بيـدها على شعرها محـاولةً لململته عبثًا ؛ فالريح قوية والشعر مسترسـل لا يستطيع المقاومة. قالت :

ــ إني لاأعطيك ولا أعطي البحر ظهري .

إني أعطي المدينة وجهي ، أحاول أن أرصد حركة الناس، يكفيكمـا أنت والبحـر أن أحس بكمـا وأن أنفعـل معكمـا ،

يهمك ويهمني أن أُراقب المدينة.

ضحكك ضحكةً مكتومة اختلطت بصخبِ الموج ، استدار من مواجهة البحر إلى مواجهة الناس والمدينة ، واقفًا إلى جوارها ، واضعًا يده على كتفها يحاول أن يحميها من خبط الريح ، ويدرء عنها النسمات القلقات ، مرَّت السيارات بألوانٍ وأشكالٍ مختلفة ، دارت واختلطت في اتجاهين متعاكسين ، همست إليه في دفء :

ــ ما الذي كان يُبكيك ؟

ضحك ناظرًا في عينيها مجيبًا :

ــ البحر والمدينة.

سألته مندهشة :

ــ كلاهما ؟!

رد بسرعة :

ــ نعــــــم .

أنزل يده من على كتفها إلى ذراعها يضمُّها إليه ؛ فارتجفت من شدة الحنان ، داخت ، ضعفت ساقاها ولم تصمدا في حملها ، ضمتها إليه أكثر ثم سألها :

ـ هل تعرفين حكاية النحلة ؟!

هزَّت رأسها قائلةً "لا" في صوت مضغوط أقرب إلى التدلل .

أجاب :

ـ جسد النحلة أكبر من أن يحمله جناحاها ، لكنها لا تعرف ذلك ، ولو عرفت لما طارت ولا حطت ، لا راحت ولا جاءت ، ولا كان الشهد ولا كان الطنين .

خبط الموج في الصخر ، صاح النورس في أعالي البحار ، أحدثت السيارات ضوضاء وجلبة ، ثرثر الناس في أمور الحياة ، عبثت النسائم بشعرها ، صارت ساقاها

أقـــوى ، نظـــرت إليـه في إعجـاب ، ضمّهـا إليـه أكـــثـــر ، طَنّت نحـــلة بين آذانهما ، دارت ثم طارت تحلـــق في المدينـــــة .

الإحتـــــواء

دفنـــت رأسهـا في صـدره ، استنشقتـه حتى آخر عمــقٍ في رئتيهـا، رفعت رأسها وهي مخدرة إلى وجهه المبتسـم وقالت :

ــ أتزوّدُ زادًا يكفيني العمـر كلــه ، أو هكـذا أخالُني .

ابتسم ثم دفن رأسه في عنقها مستنشقًا رائحتهـا ، همست له وهي لم تزل بعد لصيقةً بصدره :

ــ كــم أتمنّى ـ والأُمنيــةُ مُحـالةُ أعــرف ـ أن أدخل صـــدرك ،أن أكمـــن هنـــاك ، تلّمني وأحتضنـــك.

ضحـك وهو يلُمُّها بيديه محـاولاً احتواءهـا من شعرها حتى

قدميها ، قال في صوتٍ قويّ :

ــ وكيف إذن سأراكِ ؟

قالت :

ــ تُخرجني وقتما تُحب ، أو أنقرُ صدرك من الداخل حتى أخرج .

ضحك قائلاً :

ــ لكنكِ لن تدخلين إلاّ من خلال جُرح .

قالت :

ــ لا ليس بالضرورة ، إنّي سأدلف خلسة ، سأنزلق كالرحيق من بين شفتيك إلى داخلك ، اتدفأُ وأحتمي بك ، وأُواجه العالم كله معك .

قال :

ــ لكنك ستختلطين بدمي ، وستتوهين بين ضلوعي ، وستتخبطين بين أحشائي .

ضحكت قائلة :

– لا سأعيشُ هناك كالبللور ، كالضوء ، وكالرؤية المتوهجة .

ربت على ظهرها ؛ فضَمَّته إليها أكثر وقالت :

– تبدو كسيزيف تحمل الصخرة وتطلع الجبل ، تتحدَّى ، وتحديك يُزيدك قوة، وصراعك يُزيدك ثباتًا .

مَسَح على وجهها بكلتا يديه وقال :

وأنتِ ككرةِ الجليدِ الملساء تتدحرجُ بسرعةٍ كالشهاب ، من قمةِ الجبل حتى منتهاه ، تصافح العُشب ، وتدخل الصدر دون استئذان .

دفنت رأسها في صدره ، استنشقته حتى آخر عمقٍ في رئتيها ، رفعت رأسها إلى وجهه

آخـــر عمــقٍ في رئتيهـــا ، رفعــت رأســـها إلى وجهه المبتســـم ، تكوّرا على بعضيهما كقـطـــيـــن أليفين ، وبديا مــن البعـــد كـــرةً إنســـانية لامحـدودة ، لا يتنبـأُ أحـــد بأي اتجـــاه ســـتميل ، ولا بأي شـــكلٍ ســـتنبعـــج ، لكــن مــن المؤكـــد أنــها لــن تنفصـــم .

البنـــت

والنـــــورس



نامــت على جنبهـا الأيمــن ، مُغْمَضَـةِ العينين في هــدوء ، ذراعهـا اليُمنى مثنيـةٌ إلى أعلى ، ويدهـا الـدقيقة تقترب مـن وجههـا ، تنثني فيها أناملهـا قليلاً . ضَمَّت ركبتـاها قـريبًا من صـدرها ، وتنفسـت في أناةِ الطفـل المُتعَـب بعـد كَـدِّ اللّعِب. كـانت بلـوزتها ذات الأشكـال الطفليـة المُحبَبـة ترتخـي على جسـدها ، أمّا تنورتها المزركشة في بساطةٍ رائقـة ؛ فلقد غَطَّتها في حنـان .

كانت نائمةً على جنبها الأيمن ، أشبه بالكون الثَرِيْ ، تحلم وتصحو ، وجهها مُجْهَدْ ، وشعرُها مبعثرٌ في فوضى ، وكانت كُلُّها في حالةِ ارتواء فائق . السكون يلُف المكان ، كل المكان؛ بينما أصْغَت كل الكائنات إلى دقات قلبها وصوتِ تنفسها وحركةِ عينيها داخل جفونها المُغلقة ورموشها المُسترسِلة ، على مساحةٍ من الوجه الملائكيّ ، الذي جمع في خلجاته مزجُ الابتسام والرضا ، الفرحة واللامبالاة التامة بالآتي ، وربما أيضًا بالماضي .أفاقها من غَفوتها في رقةٍ شديدة، فتحت عينيها ونظرت إليهِ في حُبٍ بالغ ، انحنى ليقبل جبهتها ؛ فأغْمَضَت عينيها مرةً أخرى واستسلمت للحظةِ الحاضرة .

قامت على مَهَل ، متكاسلة تمشط شعرها ، تمسح وجهها ، تقرص نفسها ، وتتأمل وجهه المُبتسم في أُبوةٍ ورجولة وتمكن ، سألته :

ـ هل أنا في حلم أم في علم .ضحك ، مَسَحَ على شَعرها وقال :

ـ حلم وعلم .

قال لها أنه يحبها كما لم يحب امرأةً قَطّ ، وأنه غير قادرٍ على التعبير رغم امتلاكه ناصية اللغة ، وأنه سينفجر وأنه وأنه ، عَلا صوت تنفسه ، وكاد يفقد السيطرة على نفسه ؛ فمسحت حَبّات العَرَق من على جبهته ، هدّأت من روعه وتمتمت :

ـ أرجوك أن تهدأ ياحبيبي .

طالع عينيها المُغرورقتين بالانفعال ، لثمها في نحرها وصدرها، جلس قُبالتها وسألها :

ـ هل تعرفين طائر النورس جوناثان ليفينجستون * ؟؟

---

* الإشارة إلى قصة طائر النورس جوناثان ليفينجستون لريتشارد باخ ، مأخوذة عن ترجمة مختصرة لرنا بيطار .

هـزّت رأسها الملائكي علامـة النفي ؛ فـاستطرد قـائلاً :

ــ إنه النورس جوناثان الذي اكتشـف أن كل مـا يُدْعى بالحدود الطبيعيـة لطاقاته ليس صحيحًـا ، وأن كـل شيئ ممكن إذا عُقِدَ العزمُ عليه .

ضحكت وقالت :

ــ وهـذه هي فلسفتـك ، وهذه هـي حيـاتك .

أطرق برأسه وعاد يتحدث عن النورس قائلاً :

ــ إنه قـد حَلَّق على ارتفـاع شاهـق ، وبسرعةٍ مُـدهشة ، وتَعَـوَّدَ على الطيران ليلاً خلافًـا لقـوانين القبيلـة .

قاطعته قائلة وهي تُزيح سلاسلها الذهبية التي تُزين جِيـدها وصدرها :

ــ وهكـذا أنا ، طـرت في سمـائك على أعلى ارتفـاع ، واقتربت منـك في حميميـة مُخيفـة بسـرعةٍ مُدهشة ، وأنت تعلم أن كـل هذا يُخـالف قوانين القبيلـة ، إنّي خائفة .

تَنَبَّه إليها ، اتسعت حدقتا عينيه وسألها عن سرِّ خوفها ؛ فقالت :

ــ الارتواء .

قام واقفًا ناظرًا إليها في دهشة ، مُتسائلًا عَمَّا تقصد .

هَزَّت راسها في حكمة الجِدَّة ، ألقت بنظرةٍ شاملةعلى المكان الذي ضَمَّهما وقالت :

ــ إنّا نتوهج حين نكون سويًا ، وتتضاعف طاقاتنا ، وهذا يوصلنا إلى الارتواء ، لكن ألاّ يعقب ذلك اكتفاء ؟؟

صمت غير قادرٍ على إخفاء ضيقه ، لَمَّ شعرةً شرَدَت عن أُذُنها ليواريها خلفها وقال :

ــ نعم ، أنتِ على حق ، علينا أن نمسك بالنورس الكامن في أعماقنا ، وعلينا أن نتعرَّف عليه أكثر ، وعلينا أن نفهمه.

ضحكت فاهتز جسدها بارتعاشة الفراشات المُحَوِّمة في الصدر والبطن ، كادت تُصبح شفافة ، وكاد يرى الأشياء من خلالها ؛ فضَمَّها إليه وأَحَسَّ بدفئها .

تركته لتمضي مُحلقةً في رحلتها الحياتية المُعتادة بعيدًا عنه ، كاد أن يتلاشى في المكان ؛ فدَبَّ بقدمه على الأرض مُختبرًا الواقع وصلابته، راودت خياله صورتها وهي نائمة على جنبها الأيمن كطفلةٍ هَدَّها اللعب وشغلتها الحكمة وأشعل رأسها الذكاء .

بـانـورامـــا



[١]

كـــانت تجلس على كرسي على مقهى علـى حافة النهـر ، وكـــان آتيًـــا مـن المدينـة ، داخـلًا المقـهى يطالـع النهـر ويطالعها وهـي تقـرأ كتابـًا فـي اهتمـام .

أحســـت بتكوينه المؤثر وصوته الحلو يقتحمها متسـائـلًا :

– هل يمكن أن أرافقك ؟ !

ابتسمت في دهشةٍ فرحة ثم دعته إلى الجلوس، ضاعت الدقائق كاللحظات أسيرة المفاجأة حتى انتبها إلى رجل يعرفها، نقر بأصابع يده اليمنى على كتفها ودعاها إلى الخروج من المقهى ؛ فذهبت وهي بعد ما زال اصبعها النحيل يتمكن من وسط الكتاب، وعيناها عليه وعلى النهر .

[٢]

جلس على كرسى على مقهى على النهر ، جاءت لتجلس جانبه دون استئذان ، لمّت بيدها اليمنى ذيل فستانها المتسع الطويل ، بينما احتفظت يدها اليسرى بسبابتها داخل الكتاب ، أنزلت حقيبتها من على كتفها وضحكت له في تأثر ملحوظ ، ابتسم

النادل المتهادي للمشهد من على بعد ، كان ما زال يضع كلتا يديه في جيوب مريلته البيضاء المتسعة منشغلاً بمداعبة النقود .

سألها رفيقها :

ــ ماذا تقرأين ؟

قالت :

ــ نفس الكتاب ، نفس الموضوع .

ضحك مُهمهمًا وقال :

عارف ، أعرف أنه نفس الكتاب ، سبابتك تريني من سمك الفاصل بين الصفحات أنها نفس الصفحة ، لكن ماذا تقرأين ؟!

تطلعت إلى النهر و الشجر المترامي بظله على صفحته وأجابت :

ــ أقرأ عن آدم والجنة والشيطان ؟

ضحك مجلجلاً مستغربًا ؛ فسارعت تقرأ له :

ـ يقول الكاتب شوقي بزيع أن هبوط آدم من الجنة يعني خسارة فردوس الواقع وكسب فردوس الذاكرة وأن الجنة لا تكون بهية لو لم تكن جنة مفقودة .

ارتمى بظهره إلى الخلف قليلاً ، مسح بكفيه على فوديه ، تأملها مليا ثم قال :

ـ نعم الحنين هو أجمل الأشياء ، حقًا الحنين إلى التفاحة يشكل لآدم روعة أكبر من حلاوة الثمرة نفسها .

نظرت إلى النهر ، ثم نظرت في عينيه وقالت :

ـ نعم .. لقد غادر آدم جنته حتى تظل رائعة .

سألها وهي تمسح بعض الماكياج من على خديها :

ـ لماذا تضعين الماكياج ؟!

قالت :

ـ حتى أزداد جمالاً .

هزَّ رأسه علامة النفي فسارعت تقول :

ـ لو لم يكن الأمر كذلك ما اخترعوا الماكياج أصلًا وما وضعته النسوة أبدًا .

هزَّ رأسه علامة الموافقة قائلًا:

ـ إنه يزيِّن فقط ، لكنه لا يجمل .

شربت فنجال القهوة مبتسمة ، جاءتها نفس اليد ، لتربت على كتفها في سلطة ولتأخذها منه ؛ فتمضي ويظل على كرسيه في المقهى المطل على النهر متأملا الشجر والناس .

[٣]

كانت تجلس على كرسي على المقهى على النهر ،

تلبس بنطالونًا قصيرًا أسود وقميصًا فاتح اللون، كانت غير منهمكة في القراءة ، لكنها استمرت في تأمل النهر والشجر والناس ، جاء من قلب المدينة يمشي ، خطا إلى داخل المقهى ، وجلس على الكرسي بجوارها دون استئذان ؛ فضمّته إليها ، قَبَّلها في فمها، مَدَّت يدها اليسرى لتمسح على رأسه من الخلف ؛ فاحتواها بذراعه اليمنى وتمكنت يده من احتواء كتفها الأيسر تمامًا ، سألته في ود عميق قائلة:

ـ عارف ؟!

أجاب :

ـ نعم ..

قالت :

ـ حينما كنا صغاراً كان أبي يطعمنا أحياناً كما تطعم العصافير صغارها .

قال :

ــ نعم أغلى ما في حاضرنا ماضينا الرائع .

وضعت سبابتها على فمه وقالت معترضة :

ــ لا ليس بالضبط ؛ فالحاضر أيضا رائع ويستمد روعته من أصالته ومن ارتباط خصالة وجمالياتة بالماضي الأول .

مَدَّ يده إلى تحت المنضدة ليخرج لها من حقيبته بعض الصور التي تمثلته وهو بعد في الطفولة الأولى ، تأملتها في اهتمام طالعت وجهه في شغف ، ثم التفتت إلى تلك اليد التي انتزعتها مرة أخرى بعيدا عنه ، وعن النهر والشجر و المقهى .

[٤]

جلس يتأمل صفحة النهر ووجوه الناس ، أتاه النادل

يتفحصه قائلاً لـه :

ـ لا تظن أنه يملكها بتمكنه من إقصائها عنك ، إنها لك ، انها تمشي من هنا إلى فضاء ذاكرتك ، فتشتعل وتزداد رونقًا وبهجة .

كان يخشى من العادة والتكرار ، وكان يحب الناس والحياة ، ويستمد الضوء من لقاءاتها وكلماتها وكان يعرف أنها قد قلبت دون عمد كل مقاييسه النفسية والحسية ، وكانت تدرك معه بصدقٍ لا محدود أن ما بدأ لا ينتهي ، وأن ما يستمر يظل ويتجدد ، وأن ذلك العشق المُنَوَّر بينهما ليس إلا كلون العيون المحبة يتوهج ولا يتبدل .

[٥]

كان تجلس على كرسي على مقهى على النهر ، تمسك بكتابٍ مفتوح ، كانت تقرأ وكان ينصت ،

وكـــانت تـمضي قبـل أن تـمتد اليـد التي تنتزعهـــا ، لكنها لم تنس شكلـه الرائـع القادم مـن قــلب المدينـة يومًـــا مـــا ، ليخلـق على شفتيهـا بانورامـــــا أبـدية رائـعة .

حـــوار
فـــوق
الســـطح



كـانا يجلسان على حافة سور سطح البيت متجاورين كحمامتين هدّهما الطيران فاختارتا الراحة في الظل ، كانت الشمس تضرب في الجزء الآخر من السطح ، تسقط على سور العشة المقامة فتنحني ملقيةً بظلها بردًا و سلامًا عليهما وهما يتحاوران ، بجانبهما تتدلّى الملابس المندّاة وتطلع منها رائحة الفرحة وينتشر حواليها رذاذ الانتعاش .

أثنت فخذها الأيمن لتأخذ قدمها اليمنى تحت فخذها الأيسر الذي تدلَّت منه الساق والقدم اليسرى تهتز كالبندول بحذاءٍ خفيف بَلَت بعض حوافه الحركة والسير .

سمعت صوت طير يزعق فسألته عمَّا يكون ، ببغاءٌ أم طاووس أم غراب البين يحسدهما ، ضحك حتى دمعت عيناه وقال أنه لا يعتقد أنه طيرٌ على الإطلاق ، وإنما هو أرنب مشاغب عيناه حمراواتان وأذناه طويلتان ، وساقاه أطول من مسافات السطح ويعشق أنثاه عشقًا يطاول أسلاك الهاتف وأعمدة الهوائيات التلفزيونية .

ضحكت حتى دمعت عيناها ، أحسَّت بتنميلٍ خفيف في ساقها وقدمها النائمتين تحت فخذها الأيسر فأنزلتهما وحركتهما ووهبتهما للريح تهزهما وتهتز معهما ؛

فأصبحت تركب السور كما تركب البنت العجلة وكان هو جالسًا كما التلميذ على مكتب الدرس مطرقًا برأسه يتأمل الأحوال ، تنهد تنهيدةً طويلة ثم قال :

ــ ليس الموت هو ما أخشاه، وإنما طول العمر .

مسحت بكفيها على خديه ، تأملت وجهه المدوّر، هزّت رأسها ونثرت شعرها ، أخرجت زجاجة عطرٍ صغيرة ورشّت على عنقها ، ثم قالت في صوتٍ مشاغب :

ــ غريبٌ أنت يا أخي ، تتحدث عن الموت والخشية من طول العمر وأنت في أوج سعادتك؟

تململ قليلاً في قعدته ، ثم وقف يتمشّى في المساحة المظللة ناظرًا الى أرض السطح المغبرة ، تمتم وكأنه يحدث نفسه قائلاً :

ـ أحيانًا من فرط سعادة الإنسان يتخيل الحقيقة حلمًا فيتحول واقعه إلى خيال ، وتصير لحظاته جزرًا وسط خضم الموج المتلاطم الذي لا يرحم .

أطرقت ببصرها وهي تنظر إلى الناس في الشارع ، نقلت عينيها إليه في نعومة ، أشارت إليه بيدها اليمنى تدعوه إلى الجلوس بجانبها ، تمهل وتباطأ ثم ركب على السور كما يركب الولد الحصان ، صار في مواجهتها ، تتدلى رجلاه وتهتزان مع الريح ، أمسك بوجهها بين يديه فأحسّ بالدفء ينتشر في كل جسده ، انحنى يقبلها ويغمرها بقبلاته ، قبّلها في شعرها وفي الفواصل التي تقسمه، في منابته من الخلف ، في أذنيها وخديها وجبهتها وأنفها ، غمرتها حلاوة اللحظة ، غمره الوجد وقال لها إنه يتمنى فعلًا لو أن مساحة وجهها كانت أكبر حتى يتسنّى له التعبير عن حدة عواطفه فضحكت وتوهجت وقالت :

ــ كـدت تلتهمني ، إن جزئيـات إحســاسي
وانحـناءات جـسدي تدور بين شــــفتيك كالرضـــاب ،
هـــل تعـرف ؟!

هزّ رجلـيه وخـبط بـهـما علـى الســور ثم قـال : هــه !!
استطردت قائلـــة :

ــ هـــل تعـرف صغــار القطـط الجـــوعى حين
يلتهمن أثـداء الأم ؟!

قــال فــي همــس : نعـــم .
قـــالت :

ــ هـكذا أنت حين تلتهمني ، تلثمني في نهـــمٍ
حنـون وتشـرد عينـــاك فـي الأفـق وكأنــك تنتظـر الآتــي.

كـــانت مسـاحة الظـل قـد كبرت ، والـملابس الـمنشورة
قـد جفـت ، وكـان السكـان قـد طلعوا ليجمعـوها ، وكـان
الأولاد والبنـات قد صعدوا ليلتقوا ، وكانت الـــدنيا تميل إلى

الظلام ، بان الإرهاق على وجهها ، وأحسّت كأن شيئًا يضغط ظهرها إلى صدرها ، انحنت على سلة بجانبها وغرفت القشطة تمزجها بالعسل ، تأكله فتسيل بعض قطراته على جانبي شفتيها ، وكانت تسترد روحها فتورَّدَ خدَّاها وبان سواد عينيها متألقًا .

نزلا من على السور إلى السلالم ، تخطيا العتبات المكسورة ، غابا في ظلام المدخل ثم خرجا إلى الشارع المُضاء نصف إضاءة ، تطلعا إلى أعلى البيت ، نظرا مليًا إلى السور الذى كانا يمتطيانه ، وضع يده على كتفها ، لَمَّتْهُ من وسطه بيدها ، تمشيا سويًا واختفيا وسط الدخان والزمان والناس ، وانتشرا وذابا في دفء المكان .

النـــــــور

الأكـــثــــر

وحـــشـــــــة

فتحت عيناها بصعوبة في مواجهة نور الصباح الذي كان قد تلصص من فتحة الستارة المثنية ، أغمضت عينيها مرةً أخرى وكأنها لا تصدق ، أو كأنها تود مواصلة الحلم، لكنها فتحتهما نصف فتحة ، وجدته إلى جانبها في منامته القطنية المشرقة اللون ، مدَّت يدها اليمنى تحيط بجذعه وتريح رأسها على صدره ، تنصت في استمتاع إلى ضربات قلبه ، لكن مالبثت أن فتحت عينيها لتهمس في صوتٍ غالبته بحة النوم وعاكسته الرغبة في الاستيقاظ .

ــ صباح الخير يا حبيبي .

فتح عينيه بصعوبة ، قَبَّلها في جبهتها وتأملها في قميص نومها القطني الفستقي الفاتح ثم قال :

ــ صباح الخير يا حبيبتي .

كانت الشمس قد أخذت لها مكانًا مستقرًا ، واستباحت لنفسها زاوية تدخل منها شعاعات ترقد في الغرفة تنيرها وتدفئها ، نظرت إليه في عشق لامحدود وسألته :

ــ لماذا لم تقبلني في فمي ؟؟

انحنى ليقبلها في فمها ، ليضمّها اليه أكثر ، فنزلت من عينيها دمعة ، تدحرجت في نعومة على خدِّها حتى لامست نحرها واستقرت هناك ، سألها منزعجًا :

ــ لماذا تبكين ؟!

صمتت هنيهةً ثم قالت :

ــ أحتويك أو لا أحتويك ، تلك هي القصة.

عبث بيده اليسرى في شعرها الداكن اللامع ، قال لها وهو يُعَدِّل من وضع الوسادة خلف ظهره :

ــ الفارق بينكِ وبين من عرفتُ من نساء ، أني أحسُّ وكأنك امتدادٌ لي ، كأنك أنا وكأني أنت ، وكأن ذراعك ذراعي ، وساقاك ساقاي ، عيناك مركز بصرى ، وصدرك صدرى .

تنهدت تنهيدةً عميقةً طويلة ثم قالت :

ــ لا أعرف أن كان ذلك يسعدني أم يشقيني ، في النهاية أنا أنا ، وأنت أنت ، وأعتقد أني سأتميز إذا كانت لي خاصة تميزني عندك كامرأة ولا أكون امتدادًا لك ، حتى لو كان هذا يعني فرط حبك لي .

قام من سريرهما في تؤدة ، تمشي حافيًا في بطء يداعب مستطيل الشمس الذي كان قد تَحَدَّد وصارت له زوايا وأبعاد، قال لها :

ـ نعم .. أنتِ أنتِ ، لكن مجموع الأجزاء لا يعني الكل ، الكل يعني الكل ، أنتِ كما استقبلك أنا ، وإذا كان هذا امتدادًا روحيًا ينعكس على رؤيتي لجسدك فهذا هو التميز .

استلقت على ظهرها ، أثنت ذراعيها ، عقدت يديها خلف رأسها ، راقبته وهو يروح ويجيء في هدوء ، أومأت قائلة :

ـ تقصد أنك تجمع في رؤيتك لي البصر والبصيرة .

توقف عن حركته قليلاً ثم قصد الفراش ، وكانت قد جلست تسند نصفها الأعلى إلى ظهر السرير بينما امتد نصفها الأسفل تحت الغطاء ، جلس على حافة الفراش يثني ساقًا عليه والأخرى ترتاح على الأرض ، تأملها مليًا ثم قال :

ـ لقد كبُرَ عشقي لك إلى حدٍّ أني أحيانا

لا أنظر إلـــى الجماليات المعتادة .

صاحت في شبه صرخة :

ــ وهـذا خطر ، إن مـن يحـب يحـب أن يرى الجمال فيمن أحبه لا أن يتصوره .

هزَّ رأســه يأسًا وأشار بيده غيظًا ثم قال :

ــ من قال أني أتصور ؟! فقط وددت أن أقول أنـي لا أهتم بعــطرك حين أحب رائحـة عـرقك ، وأمسح على أنفك دون أن تـأفف اذا شرد منها شـــيء .

أزاحت الغطاء ، قامت واقفةً ، تمطت قليلاً ، تثاءبت ثم قالــت :

ــ هـذا أيضًا خطـر ، لأنه يلغى بعـض الحدود بيني وبينك كرجل وامرأة .

قام من قعدته ، بدا وكأن صبره قد نفد ، وقـف قُبـالتها ، تطلـع إليها مبتسمًا ، ضَمَّها إليه وقَبَّلها في منـابت شعرها مـن

الخلف ؛ فضحكت تقول وهي بعد في حضنه :

ــ المرة الأولى التي قبّلتني فيها هنا ، كان الأمر محض اكتشاف لذيذ ، في المرة الثانية صار الأمر استمتاع جميل ، هأنت تكتشف جسدى وجزيئاته .

قال في هدوء وهو يمسح على شعرها :

ــ وهأنتِ قد بدأت تفهميني ، إن الروعة تكمن في ذلك التوازى بين عمود النور الشمسي الساطع القادم من بين فتحة الستارة ، وبين الفكرة النيِّرة التي أنقلها إليكِ فتضيء جنباتك .

ضحكت وهي تحاول لمّ شعرها وقالت :

ــ هذا تفسيرٌ درامي ، أحيانًا يكون الظلام أقل وحشةً من النور ، عليّ أن أمضي الآن ، يجب أن أترك المدينة لفترة .

صاح : وهأنتِ سترحلين وستصبح المدينة خاويةً خاليةً

من ضحكك وضجيجك .

ردّت :

ـ إنها المرة الأولى التي تخبرني بأن لي ضجيج .

مضت من الباب ، ومضى يفتح الستارة إلى مداها الأخير ، نظر إلى الشمس وهي تفرش الطريق ، همهم لنفسه في كلماتٍ واضحة : حقًا إن هذا النور الذي يضيء المدينة أكثر وحشة من الظلام الذي ضمّنا سويًا .

مكالمة
تليفونية



حاولا أن يوجزا الكلمات والأشواق في مساحة الزمن التي حددتها مدة المكالمة التليفونية البعيدة الآتية من وراء البحار؛ فكـادت أسلاك الهاتف أن تنفجـر غيظًا وحبًـا ، حَكَّت عاملة التليفـــون فـروة رأسهـا حسـدًا وحنقًـا ، تململــت الـذبذبات الإلكترونيـة التي تنقـل الكلمات ، وتعثرت في طــول الخطوط الممدودة هنا وهناك .

أخبرته أنه بالفعـل قد وَحَشَها ، وأنها حالمـا سمعت صوته

لم تتمالك نفسها ، قال لها أن الأيام تمر ببطء شديد وكأنهاالسنوات ؛ فصاحت في صوتٍ مسموع مليء بالوجد والعشق والانتباه : أحبك .

ارتبكت عاملة التليفون وهي تنصت جيدًا لما يُقال ، حَكَّت فروة رأسها أكثر وكادت أن تقطع الخط ، لكنها نظرت في الساعة المحددة أمامها ، تنتظر مدة المكالمة كي تنقضي فتنهيها ، لكن الدقائق كانت رائعة ، سألته عن أحواله ؛ فذكر لها بعض المصاعب التي يمر بها ، حكت له أنها قد أخبرت أختها عنه ، لكنها لم تفصح لها عن حقيقة المشاعر التي تموج في صدرها لأنها لا تستطيع ، لكنها أختها قد أحسَّت بالأمر وابتسمت . أخبرته بأنها لا تستطيع النوم ، أخبرها بأنه يتوه في فراغ الزمان والمكان ، وبدونها تبدو المدينة مقفرة كاليباب ، موحشة كالصحراء ليلًا ، ضحكت ضحكتها المميزة ، وفجأةً دخلت عاملة التليفون بصوتها الخشن

بعد أن أنزلت يدها التي تحك بها فروة رأسها وقالت : (المكالمة انتهت) ، لكنها لم تكن قد قطعت الخط بعد ؛ فسمعتها تقول له : (خذ بالك من نفسك ، إني أحبك) ، وسمعته يقول :(وأنا أحبك أكثر) .

مسحت عاملة التليفون عَرَقها من على جبهتها بمنديلٍ ورقي متسخ ، نظرت إلى الفتاة القادمة إليها فى رشاقة كأنها ترقص، وجهها مُنَوَّر وصفحته تبدو فى شفافية القمر ، صدرها يعلو ويهبط ، بينما يتناغم تنفسها مع كل الأشياء حولها ، كادت أن تسألها فى فضول عن سر تلك العاطفة ، وهل توجد مثل تلك المشاعر هذه الأيام ؟! كيف والدنيا غلاء وصراع وعنف، كيف والطقس حار والأزمات تكاد تخنق الناس ؟!

انتبهت البنت لتعابير وجه عاملة التليفون ، سَلَّمَتها النقود ومضت ، تطير فى ساحة مكتب البرق والهاتف كالطير الغريب

الـذي حَلَّ على المدينـة وهو يرتدى حلـة قوس قزح .

وضعت عاملة التليفون يدها على خدها وكـادت أن تنام ، هَـدَّها التعـب وحَيَّرتهـا الـدنيا ، وكـانت فى قلبهـا حسـرة.

مـا أن انتهـى دوامهـا الـرسمي ومضـت إلى بيتهـا ، حتى وجدت خطيبهـا في الصـالة جالسًـا مـع أبيهـا ، تَطَلَّـع إليهـا وتطلعـت إليه ، سألهـا عن سر تعبها ، طلـب منهـا أن تأكل وأن ترتاح قليلاً حتى ينزلا ليبحثـا عـن شقـة . جلسـت على كـرسيها المفضل تلقى عليـه بكل ثقلها ، حَكَّـت فـروة رأسها وتأملـت خطيبها قليلاً ثم أشـاحت بوجهها وقـالت : أحبك !

نظـر خطيبها إليها في دهشـة ، حدجها أبوهـا بنظرة ثاقبة ، وأتت أمهـا تجـري لتطـالع المشهد عن قرب ، أنزلـت عـاملة التليفون الحقيبة من على كتفها متأملةً ابتسامـة خطيبها البلهاء. لم تنتظـر إجابة أو رد فعـل أو حتى حركـة . قـامت لتغسـل وجهها ولتراه فى المرآة ، لتكلم نفسها متمنية أن ترى فى الغد،

أو بعـد غد ، البنت التى تختصر الأشواق والمسـافات فى دقـائق ، بَلَعَـت ريقها في صعـوبة ، حدقـت فى عينيهـا مليًـا ، لاحظت أن ثمة وهجًا خاصًا كان فى عيني البنـــت لا يتحقق فى عينيهـا ، وهجٌ أعطى أسلاك التليفون شحنـة عشق لا محدودة حركت السكون ، أنعشت المكان وأربكت الزمان المحصور فى عقــارب الســاعة الإلكترونيــة التي تحـدد مــدد المكــالمات .

عندما يأتي الوطن
ماشياً على قدمين

أكلته حرارة الشمس.

تمشى في الطرقة الفاصلة بين مدخل الدرج ونهايته، طلبًا لبعض النسمات التي تهب من البحر وتمر على الشجر علّها تُلطف من وقع الشمس على خديه، لكن أكلته حرارة الشمس.

راح وجاء ، وجاء وراح ، تفحص كل السيارات ، تأمل كل الناس ، وكاد ضوء الشمس النافذ أن يأكل عينيه فمرّتا في دوامة البحث المضنية كعصفورين تاها على الأغصان.

مضـى إلى الـداخل ، مسـح العـرق مـن على جبهتـه ووجهـه، مسح عليهما بالمـاء البـارد لكـن كـانت الشمس قد لفحتـه ، وأكلـه الهجير وتركـه قلقًا منتظراً ، يروح ويجيء ، حتى خاف وتطلع بعين مترقبة متوهجة إلى ما يمكن أن يحدث.

وهـو في غُدُوِّهِ ورُواحه ، مـا بين الخطوة والخطـوة ، وهو يكـاد يدخل ويخـرج ، وهـو على الحـد الفـاصل بين الـرؤية والبحـث ، الاستسلام واليـأس ، وهو على حَدِّ السكين يمشـى في حذر ، تقدَّمت بخطواتها الرشيقة تدلف إلى عـالمه فى جرأةٍ واقتحام ؛ فطفرت من عينيه الدموع ، وغـصَّ بها حلقه، قبَّل وجههـا وجبينها ألف مرة ، لم يترك فيه مسـاحة أو مكان إلاّ ولثمـه ، تمنَّى أن تكون لهذا الوجه القدرة على الامتـداد كما الأرض في وطنـه ، مـن الشمـال إلى الجنوب ، تمنَّى أن يتسـع ليَسَـع المـدن والقـرى والنجـوع ، تمنَّى أن يتمـدد ويتـورَّد وتَطْـلَعُ فيه النخلات ، وتجرى فيه البنات .

وبعدما شمَّ رائحتها الحلوة ، وتيقَّنَ أنَّها بكاملها لم يمسسها شرّ ، بلَعَ ريقه ؛ فمسحت وجهه وقالت :

ــ لقد أكلتك حرارة الشمس.

تأملته من رأسه حتى قدميه ، ضَمَّته كالطفل الغرير ، تأمَّلها من شعرها حتى رجليها ، ضمَّها كالأب يحتويها بين ضلوعه ، ويُخَبِّئُها في صدره ، ولما خلص حوار العشق تقدمت إليه ، أمسكت بيديه وسألته :

ــ إذن فلقد أتيت من بلادِ الفرنجةِ مباشرةً إلى بلادِ العرب .

أومأ برأسه علامة الإيجاب ؛ فاستطردت قائلة :

ــ وهل كانت لديك نيةٌ للاستقرار هناك ؟

هزَّ رأسه علامة النفي .

ضحكت ؛ فاهتزَّ جسدها ، واهتزَّت بعض الشعرات على رأسها لتنحدر على جبهتها تُزَينُها ، ثم سألته :

ــ ولِمَ لا.. ألا تعجبــك حضــارة الغــرب وبناته؟

ضحك وهو يتأملها قائلاً :

ــ لقـد كُنت هنـاك من أجل هـدفٍ فتحقـق ، أخذت من حضارة الغرب ما قدرت عليه ولاءمني ، أمـا بناته فهن أشبه بتماثيل الزجاج.

ضحكـت مـرةً أُخرى ، محـاولةً إخفـاء إعجـابها بالـرد ، همهمـت وهي تتدلّل كغصـنٍ تأوّه تحت رحمـةِ الـريح سائلةً إيّاه :

ــ ألم تلحظ أني قد اكتسبت سمرة.

قَبَّــل أناملهـا العشـرة في حركـةٍ خاطفـة وقــال بسـرعة :

ــ لم أتمكـن من الاستقـرار فى الـوطن ؛ فجـاء الوطن إليّ يمشي على قدمين.

أخذت عينـاها شكل نفرتيتي ، وكان جمال بشـرتها يقارب

روعة القدماء ، كان جمالاً بسيطًا متمكنًا يظهر في التعابير والخلجات ، يبان في القسمات ، يخرج من الكلمات دافئًا مستكينًا ، ويأخذ من مخزونٍ فياض يرقد تحت الجلد.

شَمَّ في رائحتها النيل والبحر الأبيض والأحمر ، ورأى قناة السويس تجري مع أنهار الدموع من عينيها ، ورأى البنات تجري مهرولةً إلى حجرات الدرس ، ورآهن يجمعن القطن ، سمع حوار الفلاحين وشرب شايهم الأسود .

رفعت هامتها إلى فوق فظهرت له شامخةً كالسَّدْ ، ابتسمت فابتسم ، لكن رغم كل شيءٍ كانت حرارة الشمس قد أكلته.

أمسكت بذراعه وقرأت صفحةَ وجههِ قائلةً :

ــ ألم تراودك أبدًا فكرة الاستقرار في الوطن ؟

صاح بسرعة :

ــ بلى.. لكني كنت أتلَّقى الصدمات تباعًا .

قالت :

ـ كل الناس سواسية ، والضغوط عليهم واحدة ، وأنت .. في وضعٍ أفضل نسبيًا ، عمومًا الأرض لك شئت أم أبيت.

قال :

ـ هذا صحيح ، لكن التوقيت يحتاج إلى تخطيط .

ابتسمت وقالت :

ـ والتأجيل يمْتَدّ ويمُدّ الأيام لتطُول ، والسنوات لتصير دهرًا ، أنت تحتاج إلى الوطن أكثر مما يحتاج هو إليك.

ضحك متأملاً هيئتها المتمكنة الراسخة ، ووجهها ذا التقاطيع الخاصة النافذة ، تذكر ورد النيل وعباد الشمس ، لوز القطن وحبات الفول ثم قال :

ــ نعم لذا تحايلت على الدنيا فأتى الوطن إليّ حتى أذهب إليه يومًا ما.

همست في أذنه وهي تستعد للرحيل :

ــ لا تتأخر أبدًا في العودة إلى الوطن حتى لا تأكل حوافك الغربة ، وتصبح كورق القطن يأكلك الدود.

تَفَزَّع قليلًا ، تأَمَّلها كثيرًا ، قالت وهي تنزل الدرج :

ــ تذكر أنك قد تخليت عن كثيرٍ من العادات.

قال وهو ينحني على السور المقام :

ــ لكني لم أَزَل أتمسك بالتقاليد.

قالت :

ــ لاجدال ولا شك في ذلك ، لكن أكلت وجهك حرارة الشمس .

وضع كلتا يديه على خدّيه ، كان ضوء الشمس المُبهر يكاد يخطف بصره ، وكانت قد مَضَت ، مضى عنه الوطن كما

يمضي ، بعدما جاءه يمشي على قدمين ، كان يشتاق إليه في اللحظةِ التي يتركُهُ فيها ، وكان مُخَدَّرًا في عمق ، رأسه مليئةً بالأفكار ، تَطَلَّع إلى الأفق فَشَمَّ رائحتَها ، رائحةَ البحرِ المالح والنهرِ العَذْب والقناة التي تروي الأساطير .

البـــالـريــنــــا



فتحت البنت الصغيرة عينيها وهي مازالت بعد على فراشها الطيب ، فركتهما لتشاهد العالم وهو يستيقظ ، شاهدت الشمس الذهبية وهي تدخل من خمائل الستارة البيضاء القطنية مُرَشَّحَة منتشرة تضيء الأركان ، متحولة إلى شمس فضية تبعث في الزوايا الفرحة والزهو.

قامت لتجلس نصف جلسة تستند بكلتا ذراعيها ومرفقيها على باطن الفراش اللين الذي لم يتأثر لضعف الضغط ، ربما تنبه للحركة الصغيرة ، كان نصفها السفلي مازال تحت الغطاء

الـذي أخذ مـن ضـوء النهـار مسـاحة وَضَّـاءة بانت في عينيهـا التي فركتهمـا مرة أخرى ، ثم نهضـت لتمشـي بلباس نومها القطني الزاهي بنور الشمس الأبيض ، جرت إلى الشرفة لتفتح جزءاً من الستارة تراقب به حركة النـاس وهم يسعون إلى الرزق.

طـربت لحـركة النـاس المنتظمـة ذهـاباً وإياباً رغـم ظـاهرها الفـوضوي ، نعـم كـانت حركـة منتظمـة في خطـوط منتظمـة ومتعــرجة، حركـة سمحــت لهـا بأن ترى النــاس يعـزفون ويرقصون ، كانت تدرك بحسها الطبيعي الخـاص أن ثمة إيقاعًا خاصًـا وراء هـذه الحركـة ، إيقـاعًا يجعل الـدَّبْ على الأرض كـالرمز والنبـض وكـالـوحي الهـائم دونما رصـد أو توجيـه.

عـادت لتغلـق السـتـارة لتـأخذ شكلهـا الأول ، جرت مـن غـرفتها الصغيرة إلى الصالة الكبيرة فشاهـدت جدتها تجلس في المقدمة تتأملها ، وما أن رأتها حتى بادرت تأمـرها بعدم السير

حافية وبغسل الوجه والأسنان وبالجلوس إلى مائدة الإفطار ثم ترتيب الكراسات والأقلام.

ضحكت البنت الصغيرة للجدة الكبيرة، كركرت وتشكلت ضحكتها في فراغ المكان وكأنها عزف ملائكي ، قالت لجدتها وهي تتملقها ، مستندة إلى كتفها الأيمن مشبكة يديها حوله في تشبث من يطلب طلباً عزيزاً غالياً صعب المنال. ضحكت الجدة في طيبة خالصة ، ضحكة غلب عليها تقدم العمر فحوت حناناً غمر الدنيا بفيضان إحساس وغلبة مشاعر، سألتها الجدة في تركيز :

ــ نعم ..يا تُرى ماذا تريدين..؟

أسندت البنت الصغيرة رأسها الصغيرة على الكتف الأصيل، تأملت التجاعيد المرسومة على الوجه المضيء وقالت في همس لايكاد يُسمع خجلاً وخوفاً :

ــ أريد أن أصبح بالرينا..

أخذت التجاعيد في وجه الجدة أشكال تقطيبات منزعجة ومنـدهشة ، ربتت بيدهـا على ظهرها ، سائلـة إياها في صوت عميق مستغرب :

ـ ولماذا بالرينا يا ننوسة؟!

كـركرت البنت مرة أخرى ، فتحـت يديهـا مـن تشابكهما حول كتـف جدتهـا ، وقفـت قبالتها وقالت لهـا في إصـرار :

ـ أريد أن أُحَلِّـق كالفراشة ، أن أقلـد الناس في غـدوّهم ورواحهم ، أن أدرك سـرّ تلك الحـركة المنتظمـة فـأجعلها منسابة محسوبة ملـوّنة تُشِّع بالبهجـة وتُشيعهـا في كل مكان.

ضحكت الجدة ، فاهتز جسدها هزة بطيئة ، هـزّت رأسها في دهشة وقالت :

ـ مـن أين أتيـت بهـذا الكلام يا ننـوسة؟!

لم تعـرف البنت الصغيرة كيـف ترد ، لكنهـا أقنعـت الجدّة

بالقيام من جلستها الطويلة ، سحبتها من يدها ، قادتها خلفهـا ، أخذتها إلى غرفتها الصغيرة فدخلا مـن ظلمة الصالة النسبيـة إلى توهـج غرفتهـا الأبيـض ، مشت بهـا إلى الستـارة القطنية الدانتيل البيضاء ، فتحتها قليلًا وأشـارت إلى الشارع قائلة :

ــ انظري كيف يسير الناس..

كيف يروحون ويجيئون..

كيف يدُّبون ويتشاورون..

إنهـا الحـركة والحيـاة والتنـاغـم الـرائع...

هَزَّت الجدة رأسها في حيرة ، تمشت أمام البنـت التي مضت خلفهـا مصممـة على إقنـاع جدتهـا التي جلسـت على سـرير حفيدتها ، تأمل كلاهما الآخر في صمت ، بلعـت الجدة ريقها وقالت :

ــ لا داعــي يا بنتي لحكــاية البــاليه هــذه...

هزت البنت رأسها غير مقتنعة ، وأيضاً غير مصممة على تصعيد النقاش ، لم تدرك بالضبط سرّ رفض الجدة ، لكنها أحست بأن المسألة فيها عيب ما ، لم تصرّح لجدتها بحواراتها الداخلية ، فقط احتمت بصدرها ، سمعت ضربات قلبها وصوت تنفسها وقالت :

ــ أنتِ أيضًا بالرينا ياجدتي ، كُلِك انتظام وإيقاع وانسيابية.

مسحت الجدة على شعر الصغيرة ولم تفهم ما قالت لكنها أحست به وتذكرت طفولتها ولعبها وتأملها للناس الذين كانوا أقل كثيراً مما هم الآن ، وأطيب بمراحل مما هم الآن ، اهتزت الستارة الدانتيل البيضاء ؛ فاهتز الضوء في المكان ، كانت البنت لم تزل حافية ، لم تغسل وجهها بعد ، ولم تلم كراساتها بعد ، فركت عينيها مرة أخرى وضحكت في كركرة أشبه بعصفور الجنة حين يتغنى بأعذب الألحان.

البيانو

كانت الحرب لتوِّها قد وضعت أوزارها ، وران على المدينة صمتٌ كئيب ، بدا على حواف البيوت وحركة الناس ، سكن داخل القلوب ، دخل إلى غرف النوم ، نام على الأسرَّة ، بات في المطابخ ، عشش في الحقول ، وجثم على الصدور كلها في قوة أليمة.

كانت الأغنيات المليئة بالحماسة الفائرة قد

صـــمتت ، وحلّـت محلها أغنياتٌ منكســـرة، وتلاوات مـن آياتِ الله البينـات ،كـان المذياع يقبـع في ركـن من الصـــالة التي تكـومت في أركـانها الأخـــرى قطـع الأثاث اســـتعدادًا للـرحيل ، جلـس الأب على كرســي يميــل قليلاً بعيـداً عن طاولة الطـــعام مســـنداً رأســه بيـده اليمنى بينما استنـــد مرفقـــه الأيمـــن في مـرارة على ســـطـــح المنضـــدة ، وارتمت يده اليســـرى في تخاذل على فخذه الأيســـر بلا قوة، تتهدل مشـــيرةً إلى الأرض الصـــمّاء تحتها.

كـان صـــوت مطــرب الثـورة يغني ، يعتصـــر الألم مـــن أحشـــاء الـوطن الجـــريح ويبثـه مـن خلال مــوجه البرنامج العـــام، كـانت البنـت ذات الســـبع سنـوات تدرك ولاتدرك فداحـــة ما يحدث ، بالتحـــديد تعرف بشـــكل ما أن العدو قـد غـار على البلاد واقتطـــع مـن جســـدها ، وكـانت قـد تَعَـرَّفت على صـــوت القنابل وآثار تدميرهـا ، تَعَلّمَتْ الفرق

بين دمدمة الرصاص وأزيز الطائرات وصراخ الريح ، وللولة النساء وأنين الجنود الممزقين ، وصوت سحيح الدمع من عيون الجرحى المشبعة بالشجن والعذاب ، كانت تدرك بشكل ما ، بفطرتها ومن حكايات جدتها ، ومن كلام أمها أن الملح إذا فسد فبماذا يملح ، كانت تجري من الصالة بفستان قصير زاهٍ ، تتوقف متأملةً أبيها دون أن يحس ، تختفي في المطبخ وغرف النوم ثم تأتي لتجري مرةً أخرى ، كان المذياع المنهزم اللون يقبض الصدر بأغنياته الكسيرة، وكان نفس المطرب المحبوب يغني للنهار :

(وبلدنا على الترعة بتغسل شعرها
جانا نهار مقدرشي يدفع مهرها)

كان الأب يحاول لملمة نفسه والأشياء حوله ، تحسس ذقنه النابتة ومسح في رفق دمعةً انحدرت من

عينيه ، أنزل يده اليمنى من على رأسه ليحاول رفعها في شموخ لكنها تصَلَّبَت في مواجهة عنقه الذي كان قد انحنى ، رفع يده اليسرى في تثاقل عجيب بعد أن أصابها الوهن فتهدلت إلى جانبه ، نجح بعد جهد في امتلاك السيطرة الوقتية على يديه وذراعيه ليتَقَويّا ويصيرا في اتجاهٍ متوازٍ يرفع بهما ابنته من بين رجليه من تحت إبطها ، يقبلها في حنان تكسوه مرارة الصدمة ، حاولت أن تهوِن عليه بالابتسام في وجهه أو إضحاكه ؛ فابتسم جاهدًا من بين دموعه وتأملها ، سألته على الفور :

ــ لماذا يابابا يقول المغني أن بلدنا تغسل شعرها على الترعة ؟! أليس لديها حمام ؟!

ابتسم مرةً أخرى مرهقاً ، أجلسها على فخذه الأيسر ، ربت على ظهرها فمَدَّت يدها النحيلة الصغيرة

لتلعب في شعره ، نزلت على الأرض ، همّت بجسدها محاولةً إظهار القوة ، شَدَّته من يده ؛ فنهض بصعوبةٍ بالغة ومشى معها في خطوٍ جنائزي ، نظرت إلى الزاوية البعيدة التي كان البيانو يتربع فيها كالأسد الأرستقراطي الرائع ، كان بلونه الداكن الفخم يثير في وحشة المكان رهبةً وروعة ؛ لكنه لم يتمكن من كسر الحزن والوجوم الذي علا القلوب وتمكن منها كالصدأ حين يأكل قلب الحديد ، أشارت البنت بيدها الصغيرة إلى البيانو وسألت أبيها وهي تنظر إليه :

ــ متى سيأخذونه ؟

أشاح الأب بوجهه ، صمت هنيهة ، بلع ريقه ، ثم قال :

ــ سنتركه هنا حتى نعود ، لانستطيع أخذه معنا لأنه ثقيل وكبير ، ثم إننا ذاهبون إلى جدتك.

تركت البنت يد أبيها وجرت إلى البيانو تعطيه ظهرها وتمد عليه ذراعيها ، تفرشانها على سطحه ، تحيط به تحميه وتحتضنه، ثم قالت :

ـ أَلَمْ تنتهِ الحرب ؟ إذن لماذا نترك البيانو ونذهب إلى جدتي في المدينة الأخرى ؟

ابتسم الأب وقال وهو يجاهد لإخراج الكلمات :

ـ لا لم تنته الحرب ، وهناك خطرٌ يتهددنا جميعًا .

داست البنت بأصابعها الصغيرةِ جداً على البيانو من الجهتين فأصدر نغماً مجوفاً مفاجئاً كالضربة تصمّ الآذان ، ثم قالت :

ـ ومن سيحمي البيانو ؟ وهل من الواجب أن نتركه وحيداً ؟

بانت الحيرة على وجه الأب ، واحتار في اختيار الإجابة ،

قال في بطءٍ ممتزج بالتنهيد :

ــ لا أبدًا ، هنـــاك الجنــود في كـــل مكـــان ســـــيحرسون البيت والبيانو !!

داســـــت البنـت مرةً أخرى على أصـابع البيـــانو بأصـابعها العشـــرة الصـــغيرة ، قالت وهي تنتحب :

ــ أَلَمْ يقــل المغني في الـراديو أن النهـــار لم يستطع دفع مهر بلدنا ؟

أطـرق الأب برأســـه وخرج مــن البـــاب المفتــوح ، شَـــدَّت البنـت الكرســـي الـواطيء وجلســـت إلى البيـانو وبدأت تعـزف لحناً كانت قـد ســـمعته في فيلمٍ قـديم شاهدته مــع جدتهـا ووالـديها في دار العــرض قبــل الحـــرب في القاهـــرة ، عزفت ونقلت أصـــابعها النحيلة في مهارةٍ وثقة، حَرَّكت قدميهـــا وتوطــدت علاقتها بالبيانو وبالركن الذي احتلـه البيـانو ، كـان العـزف كلاســـيكيًا يتشكـل مــن

مـــارشـــــات عســـــكرية وإيقـــاعات قـــــوية تمتلىء بالشـــــجاعة ، وكان رائعًا متمكنًا لايتناســـــب بأيةِ حال مع هيئتهـا الصـغيرة ، لحـنٌ تمكن من قتل الصـــمت في المكـان ، وتمّكـنَ من العلوِّ فوق صـــوت الراديو المتحشــــرج ، أَطـلَ الأب برأســـه من خلف الباب المفتوح ، ووقفـت الأم على باب غرفةِ النوم وفي صـــــحبتها أخوة البنـت التي كانت ما زالـت جالســـــة على كـرسيها تعـزف وتعـزف وتعـزف حتى صــــاح مـــن تحــــت ســـائق الســــيارة التي ســـتنقلهم ، وحتى استمــر بوقهـا في الصـــراخ إنذارًا بضـــرورة التـأهب للرحـــيل ، أنهـت البنـت اللحـن ، صـــفقت الأســــرة في إعجـاب ، انحنـت البنـت لتغلـق وجه البيـانو ، ولتغطـــيهِ بغطـائه ولتتقـدم ركـب الأســـرة ، تنزل على الـدرج واثقـةَ الخطـــى ، جلســـــت إلى جوار الســـائق الـذي كـان قـد فتـــح راديو الســــيارة على أغـــــنيةٍ أخرى لنفـــس

المطـــرب المحـــبوب تقــول :

(ابنك يقولك يابطل هاتلي نهار)

أغلقـــت البنـــت الـــراديو في جـــرأة ، نظـــرت إلى الســـــائق في غــضـــب وقالت :

ــ أنا لا أفهم كيف ســـــيأتي بالنهار وهو غير قـادر على دفـع المهــــر لبلـد مـازالت تغســــــل شعـــرها على الترعـــــة.

نظر الأب إلى الأم ونظر كلاهـــما إلى الســـــائق الذي هـــزَّ رأســـــه عجباً ، كـان يود أن يقـول : جـــيل آخـــر زمـــــن ، لكنـــهُ فَضَـل أن يقـولها في ســـرّه لأن كـان يخشـى تلـك البنت القويـــة ، ولا يدري كيــف ســـــتكون عندما تُطِلُّ على هذا العالـــم وهي امرأة.

الفهرس

دار الطباعة المتميزة
Advanced Press House
Tel.: 2993542